ISSN: 2321-7928

المفاضلة بين الشعراء وفق معيار الطبقة الشعرية

- د. سامر الكاطع[1]

الملخّص

يحاول هذا البحث الكشفَ عن أسس المفاضلة بين الشعراء وفق معيار الطبقة الشعرية الذي ابتدعه ابن سلام الجمحي في كتابه ذائع الصّيت (طبقات فحول الشعراء)، واعتمد في جمع مادته على علمه الواسع بالشعر القديم، وملَكته النقدية الدقيقة القادرة على تذوق الشعر وتمييز جيده من رديئه، وخلص البحث إلى أنّ طريقة ابن سلام في ترتيب الشعراء تقوم على مبادئ عامة منها تشابُه الشعراء في مذهبهم الشعري، والاحتجاج لهم، وذِكر ما قاله العلماء فيهم. ثم معيارَي الكثرة والجودة الذي على أساسهما سيُقدِّم بعضَ المجيدين على بعض، وهذه المبادئ ستقوده بعد الفحص والاستقراء، إلى تقسيم الشعراء في عشر طبقات،كل طبقة أربعة رهط؛ يكون فيها كلُّ شاعر في طبقته رأسًا لمذهب عُرف به، وهو مع قرنائه الثلاثة يكوّنون طبقة، ونرى ذلك جليًا في الطبقة الأولى، وشعراؤها امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، والأعشى. فكأنّ هؤلاء الأربعة أصحابُ مذهب شعري واحد، لذلك نظمهم ابن سلام في عقدٍ واحد، ثمّ شرع في ذكر الخصائص المفردة لكلّ شاعر منهم. لكنه لسببٍ ما ربما يكون حداثة فكرة الطبقات وانشغاله بفرز الشعراء وتوزيعهم على طبقات، لم يفسّر لنا هذه المذاهب الشعرية، ولم يدل على الأساس الذي بنى عليه ما ذهب إليه من تشابه المناهج. ليفتح بذلك باب الاجتهاد والتحليل لمن يأتي بعده لسبر أغوار كل طبقة شعرية ومعرفة سماتها الفنية المميزة لها، وهو ما يحاول بحثنا هذا المشاركة فيه قدر المستطاع.

[1] أستاذ الأدب والنقد في قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة ماردين أرتقلو- تركيا

الكلمات المفتاحية: ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، الفحولة، المفاضلة.

مقدمة: يمثّل كتاب (طبقات فحول الشعراء) لمؤلّفه ابن سلاّم الجمحي البصْري المتوفي سنة 232هـ، محاولةً مبكرة في تاريخ النقد العربي القديم، لتأصيل منهج نقدي قائم على أسس واضحة محددة. وقد مهّد ابن سلام لحديثه عن الشعراء بمقدمة أوضح فيها منهجه وأبان عن رأيه، وتحدّث فيها عن عدد من القضايا الأدبية التي تتصل بالنقد الأدبي وبتاريخ الأدب، ومنها قضية انتحال الشعر، كما عرض لنشأة الشعر العربي، وتحدّث عن تفشّي اللحن وجعلَه السببَ الذي أدّى إلى نشأة النحو العربي على يد أبي الأسود الدؤلي، ثم أشار في إيجاز إلى ابتداع الخليل بن أحمد للعروض. ويقرّر ابن سلاّم في المقدمة أنّ "للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات"[1]. وكأنه يقصد بالصناعة العلمَ بمصادر رواية الشعر، ومبلغ توثيقها وتوهينها، وعيوب الشعر، والسرقات والمصنوع من الشعر، وغير ذلك مما يجب على العالم بالشعر معرفته: "فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به".[2]

وقد اعتمد ابن سلام في مادة كتابه على علمه الواسع بالشعر القديم، وعلى دقة بصره وصواب حكمه، وأيضًا على تلك الملَكة النقدية الدقيقة القادرة على تذوق الشعر وتمييز جيده من رديئه، التي شبّهها في مقدمته بحاسة الصيرفي الخبير المدرّب: "ومن ذلك الجَهبذة بالدينار والدرهم، لا تُعرف جودتهما بلونٍ ولا صفة، ويعرفها الناقد عند المعاينة، فيعرف بَهرجها وزائفها ".[3]

كان حديث ابن سلاّم في المقدمة تمهيدًا للهدف الأصلي للكتاب، وقد أوضحه بقوله: "ذكرنا العربَ وأشعارَها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها، إذ كان لا يُحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب، ... فاقتصرنا من ذلك على ما

[1] طبقات فحول الشعراء، ص 5.
[2] المصدر السابق، ص 7.
[3] المصدر السابق، ص 5، وأراد بالجهبذة: نقد الزيوف والصحاح من الدنانير والدراهم.

لا يجهله عالم، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب، فبدأنا بالشعر".[1]

فهو كما يبيّن سيذكر العرب وأشعارها وشعراءها وفرسانها، وهو لا يطمع أن يأتي على أخبارهم جميعًا، فليس في مقدوره فِعلُ ذلك مع قبيلة واحدة إن أراد، فاقتصر على المشهور منهم عند العلماء، وبدأ بالشعر لشيوعه في أحياء العرب، ولمكانة الشعراء بين الناس.

وبعد أن يمهد الطريق يقول عن شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلام: "وقد اختلف الناس والرواة فيهم، فنظر قومٌ من أهل العلم بالشعر والنفاذ في كلام العرب والعلم بالعربية، إذا اختلفتِ الرواة فقالوا بآرائهم، وقالت العشائر بأهوائها، ولا يُقنع الناسَ مع ذلك إلا الرواية عمّن تقدّم".[2]

فالمفاضلة بين هؤلاء الشعراء جميعهم جاهليين ومخضرمين وإسلاميين كانت- على ما يبدو- محطّ خلافٍ بين الناس، كما لاحظ ابن سلّام، وقد اتسع باب الخلاف في تفضيل بعض الشعراء على بعض، حتى وصل إلى طبقة الرواة أنفسهم، وشجّع خلافُ الرواةِ بقيةَ الناسِ على القول برأيهم في تفضيل شاعر على آخر، فتشعّبت الطُّرق، واختلفت الآراء، ثم تعصّبت بعض القبائل إلى شعرائها، فأثنَوا عليهم وقدّموهم على بقية الشعراء بدافع العصبية القبلية غير ناظرين إلى القيمة الفنية لشعر هؤلاء الشعراء، لكنَّ مآل الأمر- من وجهة نظر ابن سلام- عند العلماء بالشعر الضالعين فيه الذين نثق العامة بقولهم لأنه مبنيٌّ على الفهم بالشعر والعلم بمواضع الجودة فيه، لا على العصبية القبلية. وهذا ما سيفعله ابن سلام أيضًا، يقول: "ففصَّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين ... فنزّلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدناه له من حجّة وما قال فيه العلماء".[3]

[1] المصدرالسابق، ص 3.
[2] المصدر السابق، ص 24.
[3] المصدر السابق، ص 23-24.

ولما كان عدد شعراء العرب أكبر مِن أن يُحاط به أو يحصى- كما ذكر ابن سلام من قبل- وجبَ عليه أن يختار ويصطفي من هذا العدد الجمّ من الشعراء أجودَهم وأخفَهم على أساس معين، فأخذَ يقرن كلَّ مَن تشابه من الشعراء في الصفات أو في الأسلوب أو في المستوى الفني إلى قرينه، فتشكّلتْ بذلك عنده فكرة الطَّبقات، يقول: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرًا، فألّفنا مَن تشابَه شعره منهم إلى نُظرائه، فوجدناهم عشرَ طبقات، أربعة رهطٍ كل طبقة، متكافئين معتدلين".[1]

وواضحٌ أنّ فكرة ابن سلام في ترتيب الشعراء تقوم على مبادئ منها تشابُه الشعراء في شعرهم، والاحتجاج لهم أو عليهم، وذِكر ما قاله العلماء فيهم. وهذه المبادئ ستقوده بعد الفحص والاستقراء، إلى تقسيم الشعراء في عشر طبقات، كل طبقة أربعة رهط، يقول: "ثم إنّا اقتصرنا- بعد الفحص والنظر والرّواية عمن مضى من أهل العلم- إلى رهط أربعة، اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقةً، ثم اختلفوا فيهم بعد، وسنسوق في اختلافهم واتّفاقهم، ونسمّي الأربعة، ونذكر الحجّة لكل واحد منهم، وليس تبدئتنا أحدهم في الكتاب نحكم له، ولابدَّ من مُبتَدأ".[2]

مفهوم الطبقة: اختلفت دلالة الطبقة في أصل وضعها اللغوي، فوردت في لسان العرب بمعانٍ متعددة، فقد وردت بمعنى الغطاء (الطَّبَق: غطاء كل شيء، والجمع أطباق). كما جاءت بمعنى المساواة (طبق كل شيء ما ساواه)، وتطابق الشيئان: تساويا، وتعني المطابقة: الموافقة، والتطابق: الاتفاق، وطابقتَ بين الشيئين: إذا جعلتهما على حذوٍ واحد وألزقتهما. وقد تأتي بمعنى التوالي أو الترتيب، ومنها سُمّيت السماوات الطِباق، لمطابقة بعضها بعضًا، أي بعضها فوق بعض على الترتيب. وتأتي الطبقة بمعنى الجماعة، والطِّبق بالكسر الجماعة من الناس، ويعدلون جماعة مثلهم، فسمّوا مراتب الناس ومنازل بعضهم فوق بعض طبقات، ولما كانت كل مرتبة من

[1] المصدر السابق، ص 24.
[2] المصدر السابق، ص 49-50.

المراتب لها حال ومذهب، سمّوا الحال المميزة نفسها طبقة، فقالوا: فلان من الدنيا على طبقاتٍ شتى، أي على أحوال شتى. كما أخذت الطبقة في اللغة دلالة زمنية فقيل إنّ الطبقة عشرون سنة، كما عنت الطبقة ساعة من الزمن، فقالوا معنى طبق من النهار وطبق من الليل أي ساعة، وقد تأتي بمعنى جزء من الزمن فيقال: معنى طبقة من الليل أي طائفة منه.[1]

وبتوزيع الدلالات اللغوية التي وردت في مادة (طبق) نجد أنها انحصرت في حقول ثلاثة: دلالة المماثلة أو المشابهة لمجموع ما، أو التوالي والترتيب، أو دلالة زمنية محددة بسقف زمني معين. وهذه الدلالات جميعًا انسحبت لتشكل المفهوم الاصطلاحي الذي ستنبني عليه الطبقة الشعرية.

وابن سلام استعمل لفظة (طبقة) في مقدمته فقال: "ثم إنا اقتصرنا بعد الفحص والنظر إلى الرواية ... إلى رهط أربعة، على أنهم أشعر العرب طبقة ".[2] ويفسّر الأستاذ محمود شاكر محقق كتاب (طبقات فحول الشعراء) معنى الطبقة هاهنا فيقول: "وقد وقفت طويلًا عند قول ابن سلام ... فوجدته صعبًا أن يُفسَّر قوله هنا "طبقة " بما يهجم على الخاطر مما ألفناه نحن من معنى طبقة [يقصد المرتبة أو المنزلة]. ولم أجد له إلا معنى واحدًا هو أنهم أشعر العرب مذهبًا من مذاهب الشعر، حين قال: فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرًا، فألّفنا مَن تشابَه شعره إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط متكافئين معتدلين".[3]

فالأستاذ شاكر يفسّر معنى الطبقة في اصطلاح ابن سلام بالمذهب الشعري، مستندًا إلى ما ذكره ابن سلام نفسه من مراعاته التشابهَ بين الشعراء، ويضيف: "فبدا لي معنى هذا أن التشابه هو أساس نظر ابن سلام، ولا يتشابه شاعران إلا في شيء واحد هو

[1] انظر: لسان العرب، طبق.
[2] طبقات فحول الشعراء، ص 50.
[3] انظر: مقدمة محقق (طبقات فحول الشعراء)، ص 68.

مذهبهما في الشعر، أو منهجهما الذي يتميز به كل واحد منهما، ويكاد يكون رأسًا فيه، فلمّا قال بعد ذلك: فوجدناهم عشر طبقات، رأيته لا يكاد يكون له معنى، حتى يكون معنى ذلك: فوجدناهم عشر مذاهب أو عشر مناهج من مذاهب الشعر ومناهجه".[1]

ويمكننا تلخيص رأي الأستاذ محمود شاكر في نقاط هي:

1. ليس معنى (طبقة) عند ابن سلام ما يتوارد إلى الذهن من مرتبة أو منزلة.
2. هو عند ابن سلام يعني المنهج أو المذهب الشعري.
3. إن كل طبقة مكونة من أربعة شعراء متشابهين في مذهبهم أو منهجهم مع فروق فردية فيما بينهم.
4. لم يفسر لنا ابن سلام هذه المذاهب، ولم يدل على الأساس الذي بنى عليه ما ذهب إليه من تشابه المناهج.

فكل شاعر رأس لمذهب عُرف به، وهو مع قرنائه الثلاثة يكوّنون طبقة، ونرى ذلك جليًا في الطبقة الأولى، وشعراؤها امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، والأعشى. فكأنّ هؤلاء الأربعة أصحابُ مذهب شعري واحد، لذلك نظمهم ابن سلام في عقدٍ واحد، ثمّ شرع في ذكر الخصائص المفردة لكل شاعر منهم: فامرؤ القيس: "سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، استحسنتها العرب، واتبعته فيها الشعراء ... وكان أحسن طبقته تشبيهًا".[2]

والنابغة: "كان أحسنَهم ديباجةَ شعرٍ، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتًا، كأنّ شعرَه كلامٌ ليس فيه تكلّف".[3] وزهير: "كان أحصفَهم شعرًا، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق، وأشدَّهم مبالغةً في المدح، وأكثرهم

[1] المصدر السابق، ص 68.
[2] طبقات فحول الشعراء، ص 55.
[3] المصدر السابق، ص 56.

أمثالًا في شعره".[1] والأعشى: "أكثرهم عروضًا، وأذهبهم في فنون الشعراء، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحًا وهجاء ونخرًا ووصفًا، كل ذلك عنده".[2]

فهذا التشابه في المنهج أو المذهب الشعري بين هؤلاء الشعراء الأربعة لا يمنع وجودَ سماتٍ خاصة مميزة لكل منهم، كما ذكرها ابن سلام، فالتشابه في المذهب الشعري لا يعني التطابق التام، فهم متشابهون في المنهج العام ولدى كل واحد منهم إضافة إلى ذلك سماته الشعرية المميزة له عمن سواه. "والتشابه هنا عند ابن سلام لا يعني التطابق، فهذا باطل لا يعقله العقل، وإنما يعني وجوهًا من الشبه بعينها في المناهج، مع اختلاف ظاهر يتميز به كل واحد منهم عن صاحبه. وبهذا الاختلاف يكون كلّ منهم رأسًا في هذا المذهب من مذاهب الشعر".[3] وبهذا الشكل يصبح التقسيم على أساس الطبقات متصلًا بجمع صفات عامة مشتركة توافرت في جماعة من الشعراء فوحّدتهم، دون أن تمحو فروقهم الفردية وإمكاناتهم الشخصية.

علامَ قامت فكرته في الطبقات؟ لم يستوفِ ابن سلام في كتابه ذكرَ جميع الشعراء، بل اختار منهم عددًا معلومًا، أربعين شاعرًا في طبقات الشعراء الجاهليين، وأربعين في طبقات الشعراء الإسلاميين، وأربعة شعراء في طبقة أصحاب المراثي، واثنين وعشرين شاعرًا في طبقة شعراء القرى العربية، وثمانية في طبقة شعراء اليهود، فهم جميعًا مئة وأربعة عشر (114) شاعرًا. وينبغي الإشارة هنا إلى قوله: "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرًا ..." وهذا يعني أنه لم يجمع الشعراء الفحول جميعهم في كتابه، وإنما اقتصر من الفحول على عددٍ منهم، وجد في مذاهبهم وطرائقهم الشعرية تشابهًا ما، فهو إذًا لا ينكر أن ثمة فحولًا آخرين خارج صفحات كتابه، لكنه غير معنيٍّ بهم في كتابه الذي أقامه على أساس التشابه في المذهب الشعري.

[1] المصدر السابق، ص 64.
[2] المصدر السابق، ص 65.
[3] مقدمة محقق (طبقات فحول الشعراء)، ص 69.

لم يذكر ابن سلام صراحةً القواعد التي بنى عليها اختياره لشعراء كل طبقة، واتخذها سبيلًا للمفاضلة بين أصحابها، غير أنّ بعض الإشارات القليلة والقصيرة المنبثة عبر الكتاب كله، توحي أنه جعل جودة الشعر وكثرته سببًا أوّل للتفضيل، فهو يقول عن الطبقة الرابعة الجاهلية وشعراؤها: طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد: "وهم أربعة رهطٍ فحولٌ شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنما أخلَّ بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة ".[1]

والطبقة السابعة وفيها: سلامة بن جندل، وحصين بن الحمام، والمتلمّس، والمسيَّب: "أربعة رهطٍ مُحكِمون مُقلّون، وفي أشعارهم قلّة، فذاك الذي أخّرهم".[2] فالجيد القليل يبعد الشاعر عن الصدارة، والجيد الكثير يجعله فحلًا، فشرطه الأول جودة الشعر وكثرته، وما من أحد ينازع في أن المجيد المكثر خير من المقلِّ المجيد. ويبدو أن ابن سلام قد فطن إلى أن كمية الشعر وحدها ليست مقياسًا صحيحًا لتقييم الشعراء والمفاضلة بينهم، لذلك قرن الكم بالكيف (أي الكثرة بالجودة)، فهو: "كان يقصد الكثرة الجيدة من الشعر أو الجيد الكثير منه، لا يفرّق بين كمية الشعر وكيفيته، لأن الشاعر الحق هو كثير الشعر جيده، لا كثيره وغثّه، ولا جيّده وقليله".[3]

ولو نظرنا إلى فكرة ابن سلام في تقسيم الشعراء في طبقات لوجدناها تقوم على جملة من الأسس والمعايير، ذكر بعضها صراحة في المقدمة، وترك للقارئ استنتاج بعضها الآخر. أما التي ذكرها في المقدمة فهي:

1. تشابه الشعراء في مذهبهم الشعري.
2. الاحتجاج لهم أو عليهم.
3. ذكر ما قاله العلماء فيهم.

[1] طبقات فحول الشعراء، ص 137.
[2] المصدر السابق، ص 155.
[3] ابن سلام وطبقات الشعراء، ص 291.

وأما التي ترك للقارئ استخلاصها من ثنايا كتابه فهي اشتراطه على الشعراء كي يكونوا فحولًا أن يُجيدوا في شعرهم، ويُكثروا في جيّدهم. فأضاف مبدأ الجودة والكثرة إلى مبدأ التشابه وورود الحجة ورأي العلماء. وبناء على هذا الأساس نراه قدّم شعراء وأخّر آخرين، فوضع امرأ القيس في الطبقة الأولى: لأنه: "سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، استحسنتها العرب، واتبعته فيها الشعراء، وكان أحسن طبقته في التشبيه".[1] بينما أخّر طرفة وعبيد وعلقمة وعدي بن زيد إلى الطبقة الرابعة مع أنهم: "فحول شعراء، موضعهم مع الأوائل"، وهذا معيار الجودة، ثمّ يضيف: "وإنما أخلّ بهم قلّة شعرهم بأيدي الرواة ".[2] أي أنهم لم يحقّقوا شرط الكثرة على الرغم من جودة شعرهم. وكذلك فعل مع الأسود بن يعفر وكان: "شاعرًا فحلًا...وله واحدة رائعة طويلة، لاحقة بأجود الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدّمناه على مرتبته".[3]

لذلك نرى أن جودة الشاعر مع قلة شعره تؤخّره عن طبقته، كما أن كثرة شعره مع جودته تقدّمه، فالشرطان اللازمان لتقديم الشاعر هما الكثرة مع الجودة، يقول عن متمّم بن نويرة: "وبكى متممُ مالكًا، فأكثر وأجاد".[4] فهو يطبق عليه قاعدته، دليل الفحولة في الشعراء (الكثرة والجودة) كثرة جيدهم وجودة كثيرهم". وكان طبيعياً أن يقوم التفاضل بين الشعراء على أساس كثرة أشعارهم وجودتها، وأن تكون منزلة الشاعر على مقدار ما يحقق من تلك الكثرة والجودة ".[5]

فالجودة والكثرة شرطان حدد بهما ابن سلام معنى الفحولة والشهرة والتقدمة، يقول في طرفة وعبيد: "ومما يدلّ على ذهاب الشعر وسقوطه، قلة ما بأيدي الرواة

[1] طبقات فحول الشعراء، ص 55.
[2] المصدر السابق، ص 137.
[3] المصدر السابق، ص 147.
[4] المصدر السابق، ص 209.
[5] تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 87.

المصحّحين لطرفة وعَبيد، اللذَين صحّ لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن، فليس موضعهما حيث وُضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة".[1]

إذن دلّل ابن سلام على الأساس الذي بنى عليه منهجه في الطبقات، وهو المبدأ العام عنده لمفهوم الفحولة (جودة وكثرة) وقسّم الشعراء بناء على ذلك، فمن توافر فيهم شرطا ابن سلام جُعلوا في الطبقة الأولى، وكأنهم يمثلون من وجهة نظره- بعد الفحص والنظر والرواية عمن سبق من أهل العلم- المثلَ الأعلى للفحولة، ثم تبتعد الطبقات نزولًا عن المثل الأعلى، حتى يصل إلى الطبقة العاشرة حيث تقل معها السمات المميزة لشعراء تلك الطبقات، ففي الطبقة السادسة مثلًا عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة بن شداد، وسويد بن أبي كاهل اليشكري. يقول عنهم ابن سلام: "أربعة رهط، لكل واحد منهم واحدة".[2] يعني قصيدة جيدة. والطبقة السابعة: "أربعة رهط مُحكِمون مقلّون، وفي أشعارهم قلّة فذاك الذي أخّرهم".[3]

نلاحظ هنا أنّ في شعر هؤلاء جودة، لكنها لا تترافق مع الكثرة، لذلك وضعهم ابن سلام في هذه المرتبة وفقًا للمعيار العام. ثم تلي ذلك طبقات ثلاث أقل شأنًا، وأكثر بعدًا عن المثل الأعلى (الطبقة الأولى). ففي الطبقة الثامنة ينص على أنهم أربعة رهط.[4] وكذا التاسعة أربعة رهط.[5] وفي العاشرة يقول: وهي آخر الطبقات، وهم أربعة رهط.[6] فمن الطبقات ما جمع شعراؤها إلى الجودة كثرة، كالطبقات الأولى والثانية والثالثة، ومنها ما انفرد أصحابها بالجودة لا غير، كالطبقات الرابعة والسادسة

[1] طبقات فحول الشعراء، ص 26.
[2] المصدر السابق، ص 151.
[3] المصدر السابق، ص 155.
[4] المصدر السابق، ص 159.
[5] المصدر السابق، ص 172.
[6] المصدر السابق، ص 189.

والسابعة، ومنها ما قلّ جيد شعرائها وكثيرهم، وهؤلاء الذين اكتفى ابن سلام معهم بقوله: "هم أربعة رهط"، وتوزّعوا على الطبقات الثامنة والتاسعة والعاشرة.

وطالما أنّ هناك مبدأ عامًا لمفهوم الفحولة عند ابن سلام، فمن الطبيعي ألا يتوافر الشرطان في كل الشعراء، لذلك قد يلجأ ابن سلام إلى ما يمكن اعتباره معايير ثانوية مكمّلة للمعيار الرئيسي (الجودة والكثرة)، من ذلك مثلًا الصدق في القول، فجعل جميل بثينة مقدّمًا في التشبيب على كثيّر عزّة، وعلى أصحاب النسيب جميعًا: "وكان جميلٌ صادق الصبابة، وكان كثيّر يتقوّل، ولم يكن عاشقًا".[1]

لكن ابن سلام وإن أطلق هذا الحكم في تقديم جميل على مَن سواه من شعراء النسيب، إلا أنه عاد مرة أخرى إلى القاعدة الرئيسية التي بنى عليها الكتاب، فوضع جميلًا في الطبقة السادسة من شعراء الإسلام رغم أنه مقدّم عنده في التشبيب، وتقدّم بكثيّر الذي: "يتقوّل ولم يكن عاشقًا" فجعله في الطبقة الثانية، وعلّل ذلك بتعدد الأغراض التي طرقها كثير (أي معيار الكثرة) يقول في حق كثير: "وله في فنون الشعر ما ليس لجميل"،[2] ويقول عنه أيضًا: "كان يستقصي المديح".[3] وانطلاقًا من هذا الفهم يجعل لتعدّد الأغراض التي عالجها الشاعر نصيبًا من التقدم به على غيره.

ثم يقرر ابن سلام أنّ الشاعر قد يجيد أحيانًا حتى يصل إلى درجة الشعراء الفحول، ولكنه لا يُقرن بهم، لأن جيّده عَرَضٌ وجيدهم دوام، "فذو الرمة من جرير والفرزدق، بمنزلة قتادة من الحسن وابن سيرين، وكان يروي عنهما وعن الصحابة، وكذلك ذو الرمة، هو دونهما ويساويهما في بعض شعره".[4] فهو يضيف هنا إلى معيار الكثرة والجودة شرطَ الدوام على ذلك الجيد، فذو الرمة شاعر مجيد، لكنه لا يصل

[1] المصدر السابق، ص 545.
[2] المصدر السابق، ص 545.
[3] المصدر السابق، ص 540.
[4] المصدر السابق، ص 551.

إلى طبقة جرير والفرزدق، لأنّ: "شعره نَقْطُ عروسٍ، يضمحلُّ عن قليل، وأبعار ظباء، لها مَشمٌّ في أول شمّها، ثم تعود إلى أرواح البعَر".[1]

ملاحظات على منهج ابن سلام في الطبقات: حاول ابن سلام أن يُدخل في تاريخ الأدب اتجاهًا نحو التفسير والتعليل، ومحاولة للتبويب والتنظيم، تخضع لأسسٍ وتنهض على قواعد. لكن على الرغم من قوة المحاولة التي حاولها وضخامة الجهد الذي بذله فيها، لم يوفّق في أن يحقّق لكتابه بناء منهجيًا متكاملًا، ولم يلتزم المنهج الذي رسمه لنفسه التزامًا تامًا، إذ كثيرًا ما نحسّ أن هناك ثغرات في هذا البناء، فقد ضيّق ابن سلام على نفسه في تحديده شعراء كل طبقة بأربعة رهط، فقد تكتمل الطبقة ويجد أنه ترك شاعرًا جديرًا بأهل تلك الطبقة التي أغلقت عليه، "وأوس نظير الأربعة المتقدمين، إلا أنا اقتصرنا في الطبقات على أربعة رهط".[2]

فالذي أخّر أوسًا عن طبقته التي يجب أن يكون فيها (وهي الطبقة الأولى) ليس سببًا فنيًا يتعلق بمذهبه الشعري، أو معيار الجودة والكثرة الذي صنّف ابن سلام بموجبه الشعراء في طبقات. لكن الذي أخّر أوسًا هو سبب منهجي يتعلق بمنهج ابن سلام في تأليفه كتاب الطبقات: "إلا أنا اقتصرنا في الطبقات على أربعة رهط". لذلك وضع أوسًا مع شعراء الطبقة الثانية وهم: بشر بن أبي خازم، وكعب بن زهير، والحطيئة، ولا نكاد نعرف لكعب إلا قصيدته ذائعة الصيت (بانت سعاد) بينما نجد في الطبقة الرابعة طرفة بن العبد وهو: "أشعر الناس واحدةً"، كما يعترف ابن سلام، ويقول: "وتليها أخرى مثلها، ومن بعدُ له قصائد حسان جياد".[3] ونعتقد أنه من الإنصاف أن يكون طرفة في الطبقة الثانية مع كعب، إنْ لم يكن طرفة في الثانية وكعب في أخرى، طالما أن المعيار الرئيسي في التقديم هو الجودة والكثرة لا غير.

[1] المصدر السابق، ص 551.
[2] المصدر السابق، ص 97.
[3] المصدر السابق، ص 138.

وما حدث من ابن سلام بالنسبة لأوس بن حجر الذي وضعه في الطبقة الثانية من الجاهليين، واعترف أنه نظير الأربعة أصحاب الطبقة الأولى، حدث معه في الطبقة الأولى الإسلامية إذ احتوت الراعي النميري مع جرير والفرزدق والأخطل، والراعي مكانته الطبقة الثانية أو غيرها، ولكن قاعدة: "أربعة رهط لكل طبقة" هي التي جعلت الراعي يزاحم الثلاثة الفحول. وابن سلام يحسُّ هذا جيدًا، ويقرّر أن: "الناس اختلفت فيهم أشد الاختلاف وأكثره، وعامة الاختلاف أو كلّه في الثلاثة، ومَن خالف في الراعي قليل، كأنه آخرهم عند العامة".[1] وهو في ذلك لم يستند إلى حجة، ولم يُقم دليلًا، ولم يذكر في كلامه على الراعي شيئًا يسوّغ هذا التقديم، ويذهب بعض الدارسين إلى أن ابن سلام قد: "انفرد من بين العلماء بضمّ الراعي النميري إلى الثلاثة الإسلاميين، وعدّه في طبقتهم من غير حجة ولا دليل".[2] فكما أخرج أوس بن حجر من طبقته الجاهلية الأولى، أدخل الراعي بن حصين في الطبقة الإسلامية الأولى، وكلاهما في غير موضعه.

ومما يؤخذ على ابن سلام أيضًا أنه تحلّل من المبدأ الذي فرضه على نفسه في ترتيب الشعراء طبقاتٍ، فجعل طبقةً لأصحاب المراثي،[3] وأخرى للرُّجّاز،[4] على أساس التشابه الفني لا الشكلي. وكذلك جمع شعراء القرى العربية في طبقة واحدة[5] على أساس البيئة والمكان، وخصّ شعراء اليهود بطبقة على أساس دينهم ليس غير، يقول: "وفي يهود المدينة وأكنافها شعرٌ جيد".[6]

---

[1] المصدر السابق، ص 299.

[2] في النقد الأدبي عند العرب، ص149، وانظر أيضاً: تاريخ النقد الأدبي، ص 84.

[3] وهم: متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوي. وذكر أن المقدّم عنده من هؤلاء هو متمم بن نويرة. انظر: طبقات فحول الشعراء، ص 204.

[4] وهي الطبقة التاسعة من الشعراء الإسلاميين، وهم الأغلب العجلي، وأبو النجم، والعجاج، ورؤبة بن العجاج، وقال عنهم: وهم رجّاز، وعن الأغلب العجلي يقول: "وكان مقدماً، يقال إنه أوّل مَن رجز ...". انظر: طبقات فحول الشعراء، ص 737.

[5] انظر: طبقات فحول الشعراء، ص 215.

[6] المصدر السابق، ص 279.

وبذلك: "حدثَ نقضٌ لفكرة الطبقات، لأنه يجب ألا يخرج من الطبقة طبقة، ولكن ابن سلام أخرج من طبقة الشعراء الجاهليين، طبقةَ أصحاب المراثي، وطبقة شعراء القرى العربية، وطبقة شعراء اليهود، وبهذا أصبحت طبقة الشعراء الجاهليين لا هي مغلقة، ولا هي مفتوحة".[1]

فابن سلام يطبّق مبدأ التشابه والاحتجاج للشاعر أو عليه، ورأي العلماء مع رأيه إن اقتضى الأمر، ثم يشترط فيهم الجودة في النتاج مع كثرته، وهي قوانين في النقد سليمة، وآراء قيمة في حد ذاتها، بعيدًا عن وضعها في قالب طبقات: "فلو ترك الأمر بلا طبقات وبلا أربعة شعراء لكل طبقة لانفسح أمامه مجال القول، ولأدرك ما فاته من الحديث عن شاعر أو التنويه بشاعر. لكن الشكل العام لاختياره هو الذي ضيّق عليه سُبل القول، وأوقعه في اضطراباتٍ كان في غنى عنها".[2]

ومن المآخذ على منهج كتاب أيضًا عدم التوازن في الحديث عن شعراء كل طبقة، والتفاوت في عدد الصفحات بين طبقة وأخرى، حيث تطول الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين، لأنه يريد أن يُعرِّف بأشياء كثيرة، حتى إذا وصل إلى الطبقة السابعة لم يجد ما يقوله سوى أنه عرض أسماء الشعراء، ولم يزد شيئًا بعدُ سوى بيتٍ سُمّي به المتلمّس متلمّسًا، وذكر بيتين للمسيَّب أيضًا.[3] ثمّ إن ابن سلام يعطي الشاعر من الاهتمام والعناية بقدر طبقته ورتبته، فقد حظي امرؤ القيس بأعظم عناية منه، وأوفى ترجمة له بين الشعراء الجاهليين، وكان أطول حديث خصّ به إسلاميًا من نصيب الثلاثة الأُوَل من شعراء الطبقة الأولى: جرير والفرزدق والأخطل. بينما يقلّ الحديث عن الشعراء كلما نزل من طبقة إلى أخرى، حتى إذا وصل إلى الطبقة العاشرة من شعراء الجاهلية، نراه يوجز الحديث عن شعرائها، ويكتفي بالإشارة

[1] ابن سلام وطبقات الشعراء، ص 253.
[2] المصدر السابق، ص 142.
[3] انظر: طبقات فحول الشعراء، ص 156-157.

العابرة، فأمية بن حُرثان بن الأسكر اكتفى ابن سلام بأن نوّه أن له شعرًا في الجاهلية وشعرًا في الإسلام،[1] وذكر بعض شعره، والثاني حريث بن مُحفّظ وهو "جاهلي إسلامي، له في الجاهلية أشعار"،[2] والثالث وهو الكميت بن معروف، اكتفى ابن سلام أن وصفه إنه شاعر،[3] وأما الرابع فعمرو بن شأس، وهو: "كثير الشعر في الجاهلية والإسلام، أكثر أهل طبقته شعرًا، وكان ذا قدر ومنزلة في قومه".[4]

وما نأخذه على ابن سلام أنه لم يبيّن لنا سبب اختياره لنماذجه الشعرية الدالة على فحولة هؤلاء الشعراء المختارين، فنراه مع امرئ القيس مثلًا يأتي بما يدل على أنه أحسن طبقته تشبيهًا، وذلك بعرض المشهور من تشبيهاته قائلًا: "استحسن الناس من تشبيه امرئ القيس قوله ...".[5] فالاختيار جزء من شخصية الناقد، وابن سلام التزم بما هو مشهور عن الشاعر، أو الذي ارتضاه له أهل النظر من أساتذته المعروفين، دون أن يضيف إلى ذلك شيئًا، وكأنه يشاركهم رأيهم في هذا، فأحكامه في الغالب هي الأحكام التقليدية التي كانت على الألسن نتداولها عن السابقين. وهو علاوة على ذلك: "يورد ما يختار للشعراء المختلفين، أو يورد مطالعه، ولكنه لا يحلّله ولا ينقده، ولا يظهر ما فيه من جمال أو قبح".[6] وربما كان السبب في ذلك أنّ ابن سلام قصد من وراء كتابه الحديث عن الشعراء وطبقاتهم، والتنويه بما لهم من نظراء، وبالمنزلة التي هم أهل لها، فصرفه ذلك من الحكم على الشعر إلى الحكم على الشعراء، "ولقد حملت روح الكتاب مؤلفه على ألا يتعرّض لتحليل النصوص الأدبية فيظهر جمالها الفني وعناصرها الرائعة، أو ما عسى أن يكون فيها من ضعف وهزال، بل انصرف إلى الشعراء أنفسهم ذاكرًا

[1] المصدر السابق، ص 190.
[2] المصدر السابق، ص 192.
[3] المصدر السابق، ص 195.
[4] المصدر السابق، ص 196.
[5] طبقات فحول الشعراء، ص 81.
[6] النقد المنهجي عند العرب، ص 21.

لهم ما يراه جيدًا دون أن يذكر أسباب تلك الجودة في الغالب الكثير".[1]

وإن كان يومض عبر الحديث أحيانًا بأحكام نقدية خاطفة، أو لمحات تعين على التأريخ الأدبي الصحيح، فيشير إلى الدور الذي لعبه السُّمَّار في بلاط الملوك، يسمرون ويتحدثون ويقصّون، ويحملون على الشعراء ما لم يقولوا: "ولا اختلاف في أن هذا مصنوع تُكثَّر به الأحاديث، ويستعان به على السهر عند الملوك، والملوك لا تستقصي".[2] ومن تلك الأحكام العابرة أيضًا أنه ألمح إلى أثر البيئة في الشاعر؛ فعديُّ بن زيد كان: "يسكن الحيرة ويراكن الريف، فلانَ لسانُه، وسَهُل منطقه".[3] بل يذهب ابن سلام أبعد من ذلك حين يشير إلى اختلاف الذوق الأدبي تبعًا لبيئة المتلقّين، يقول: "وأهلُ البادية بشعر جرير أعجبُ".[4] و"أهل الحجاز يُقدّمون كثيّرًا، ولكنه منقوصٌ حظّه بالعراق".[5]

وعلى أساس البيئة كوّن ابن سلام طبقة تميّز شعراؤها بأنهم عاشوا في بيئة واحدة، وتأثروا بمؤثراتها المختلفة الاجتماعية والاقتصادية، ونعني بها طبقة شعراء القرى العربية، وهي خمس: المدينة، ومكة، والطائف، والبحرين، واليمامة. ذكر من شعراء المدينة خمسة، وتسعة لشعراء مكة، وخمسة لشعراء الطائف، وثلاثة لشعراء البحرين، ولم يأتِ على ذكر أحد من شعراء اليمامة معلّلًا ذلك بقوله: "ولا أعرف باليمامة شاعرًا مذكورًا".[6] ونراه في طبقات شعراء القرى، يقدّم حسان بن ثابت على شعراء المدينة جميعًا، فيقول: "أشعرهم حسان بن ثابت، وهو كثير الشعر جيّده".[7] بينما كعب بن مالك: "شاعرٌ مجيدٌ".[8] وعن شعراء البحرين يقول: "وفي البحرين شعر كثير جيد

[1] تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 79.
[2] طبقات فحول الشعراء، ص 61.
[3] المصدر السابق، ص 140.
[4] المصدر السابق، ص 375.
[5] المصدر السابق، ص 540.
[6] المصدر السابق، ص 277.
[7] المصدر السابق، ص 215.
[8] المصدر السابق، ص 220.

وفصاحة".[1] ويصف شعر قريش باللّين: "وأشعار قريش أشعارٌ فيها لين".[2] ويعلّل قلة أشعار قريش، فيقول: "والذي قلّل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويُغار عليهم".[3]

وقد يفضّل الشاعر في كلمة واحدة، لا يقدّم بينها سببًا، ولا يدعمها بتفصيل: "ومن الناس من يفضّل قيس ابن الخطيم على حسان بن ثابت، ولا أقول ذلك"،[4] "وهو إن أورد حكمًا لنفسه لم يسبِّب أحكامه، بتحليل لنصٍّ، أو ذكرٍ لصفات مميزة، وإن أورد خصائص جاءت عامة غامضة غير دقيقة ... لا تحديد فيها ولا تفصيل".[5] وقد يكون التفضيل إعجابًا ذاتيًا في جملة عامة، فأبو ذؤيب الهذلي: "شاعر فحل لا غميزة فيه ولا وهن".[6] وسحيم عبد بني الحسحاس: "حلو الشعر، رقيق حواشي الكلام".[7] والبعيث: "فاخر الكلام حرّ اللفظ".[8]

فمثل هذه الأحكام هي مما اهتدى إليه ابن سلام بذوقه الخاص، وقد جاءت في معرض تقسيمه الشعراءَ طبقاتٍ، لذلك لا يذكر من الشواهد الشعرية ولا يُحلّلها أو ينقدها إلا بمقدار ما يعينه على وضع الشاعر في طبقته التي يراها مناسبة له. ولم يعتبر المخضرمين طبقة قائمة بنفسها، بل نزّل المخضرمين منازلهم، من طبقات أهل الجاهلية وطبقات أهل الإسلام، وألّف مَن تشابه شعره منهم إلى نظرائه. يقول: "ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا

[1] المصدر السابق، ص 271.
[2] المصدر السابق، ص 245.
[3] المصدر السابق، ص 259.
[4] المصدر السابق، ص 228.
[5] النقد المنهجي عند العرب، ص 22.
[6] طبقات فحول الشعراء، ص 131.
[7] المصدر السابق، ص 187,
[8] المصدر السابق، ص 535.

الإسلام".[1] فهو يعي قضية المخضرمين وكأنه يشير إلى أنهم للجاهلية أقرب، ففي الطبقة الثانية من الجاهليين أوس بن حجر وبشر بن أبي خازم، وهما جاهليان، ومعهما كعب بن زهير والحطيئة، وهما مخضرمان. والطبقة الثالثة كلّها مخضرمون، والرابعة كلها جاهليون، والخامسة فيها الجاهلي والمخضرم. وفي الطبقة الثالثة من الإسلاميين كعب بن جعيل، وعمرو بن أحمد الباهلي وسحيم بن وثيل الرياحي، وهم مخضرمون. وأوس بن مغراء وهو مسلم، وفي الرابعة حميد بن ثور وهو مخضرم والبقية مسلمون. وفي الثامنة بشامة بن الغدير وقراد بن حنش وهما جاهليان أدركا الإسلام، وهكذا إلى آخر الطبقات العشر في كل قسم.

فلماذا لم يُفرد للمخضرمين طبقة خاصة بهم بل ذكرهم في الغالب مع الجاهليين؟

كأنما لاحظ ابن سلام أن جلّ تراث هؤلاء الشعراء المخضرمين إنما قالوه في الجاهلية، وأن: "الإسلام أدركهم وقد اكتملت ملكاتهم الفنيّة في العصر الجاهلي، وتم نضجهم الأدبي فيه، فلم يكن يسيرًا أن تغيّر الحياة الإسلامية الجديدة حياتهم الفنية تغييرًا جذريًا، ينسلخون معه من ماضيهم ليُخلَقوا خلقًا جديدًا"،[2] وإنما حدث ذلك عند الشعراء الأمويين الذين بدؤوا طريقهم الفني في ظل الحياة الإسلامية الجديدة، وتكاملت ملكاتهم الأدبية فيها. "فابن سلام لم يكن يعدّ المخضرمين طبقة قائمة بنفسها ... وإلغاؤه طبقة المخضرمين وإدماجها في طبقة الشعر نفسه، دليلٌ على حُسن بصره بالنقد، وجودة معرفته بالشعر".[3]

وتبقى ملاحظة أخيرة على ابن سلام هي أنه اقتصر على ذكر فحول الشعراء من الجاهلية والإسلام، واستبعد الشعراء المحدثين الذين سبقوه أو عاصروه، نحو بشار بن برد (167هـ) ومروان بن أبي حفصة (182هـ) وأبي نواس (198هـ) وأبي

[1] المصدر السابق، ص 24.
[2] مناهج البحث الأدبي، ص 86.
[3] مقدمة محقق (طبقات فحول الشعراء)، ص 65.

العتاهية (211هـ) وأبي تمّام (231هـ) وغيرهم من شعراء العصر العباسي المميزين. ولعلّ السبب في ذلك تعصّبه للقديم كسائر نقاد ذلك العصر، فلم يتمكن ابن سلام: "من التحرر من موروث أسلافه ومشايخه إذ اقتصر في كتابه على من يحتج بشعره من الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ولم يتجاوزهم إلى غيرهم من المحدثين أو المعاصرين، فيخصّ الفحول المشهورين منهم بطبقة فيه، ويبدو أن الأوان لم يحن لذلك بعد".[1]

وقصارى القول: إن مصطلح الطبقة الشعرية قد ارتبط بابن لام الجمحي، وكتابه (طبقات فحول الشعراء)، فإليه يرجع الفضل في تأصيل هذا المصطلح، وتطبيقه على شعراء الجاهلية والإسلام، وإن لم يكن قد بلغ الغاية في كتابه، فحسبه أنه وضع اللبنة الأولى في دراسة النقد على أسس منهجية، كما حفظ لنا كثيرًا من الآراء والأحكام النقدية الهامة لكثير من العلماء واللغويين، التي انتفع بها من كتبوا بعده في نقد الشعر أو في سير الشعراء.

[1] فصول في النقد العربي وقضاياه، ص 115.

المصادر والمراجع

1. ابن سلام وطبقات الشعراء لمنير سلطان، منشأة المعارف الإسكندرية، 1977م.
2. تاريخ النقد الأدبي عند العربمن العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري لطه أحمد إبراهيم، قدّم له أحمد الشايب، منشورات قسم اللغة العربية في كلية الآداب، القاهرة، ط1، 1937م.
3. طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بلا تاريخ.
4. فصول في النقد العربي وقضاياه لمحمد خير شيخ موسى، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1984م.
5. في النقد الأدبي عند العرب لمحمد طاهر درويش، دار المعارف، القاهرة، 1979م.
6. لسان العرب لجمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط6، 1997م.
7. مناهج البحث الأدبي ليوسف خليف، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1997م.
8. النقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1996م.